أحبت رجلاً وحكمت رجالاً، حتشبسوت

إنها بداية يوم جديد، فإله الشمس"آمون" يشرق على عالمنا بسطوعه المعهود، حيث يتسلل ضوؤه الدافئ من خلف ستائر غرفتي الحريرية بلونها الذهبي. بدا لي وأنا مستلقية على سريري ذي القوائم الخشبية التي على شكل الآلهة حتحور التي تحميني وتحملني دائمًا، إنى أسمع صوت أمى الخافت وهي تبكي .الأمر الذي لا يحدث أبدًا! فكيف تبكي الملكة بنت الملك؟!، إنها أقوى امرأة على الأرض ،إنها ذات الدماء الملكية الخالصة التي تحكم الكون!

فأخذت أتلمس طريقي إلى شرفة القصر، فإذا بي أرى أمي الملكة تجلس في حديقة القصر تتأمل بحزن أزهارها التي تحبها هامسة:

- قد فعلها الفرعون، إنه الآن يعد ليُجلِّس ابن اخيه من إحدى الجاريات كوريث للعرش. إنه بذلك التصرف الأحمق سيصعب علينا الحياة جميعًا، فما هي نتيجة أن يملك ابن الجارية هذا سوى البطش والانتقام من بنتي حتشبسوت. إني أعلم أن حتشبسوت قوية، ولكن ما الذي قد تفعله الأميرةالمدللة ذات السبعة عشر عامًا ربيعًا أمام طموح رجل شاب قد جعل العرش وجهته!

حينها علمت أنه يمكن حتى للملكة أن تبكي، لا لخوفها من الجيوش الزاحفة ولكن لخيانة من هو يملك قلبها. إن أمي" أحمست" بنت العظيم آمون تبكي لأن زوجها المحبوب الذي عاهدها حبه كل يوم، قد نكث بعهده معها! وذهب وراء طموحاته الأنانية.

فإنه كان يعلم أنها لن تستطيع أن تنجب المزيد من الأبناء له، فما الذي يمكن أن تفعله أميرة مثلي لعرشه المزعوم، أقصى طموحاتها أن تتزوج من أمير لتتوارى في النسيان.

أخذت أراقب أمي بلباسها الكتاني الضيق وشعرها المستعار المصري الناعم تجلس صامتة تتأمل حديقة القصر ذات أزهار اللوتس الناصعة البياض، بدت لي مثل هذه الزهور التي تشق طريقها في ثبات وقوة حتى وسط جو مصر الحار والعاصف وبرقتها المتناهية تتغلب على حرارة الشمس العنيدة الغاشمة.

"آه يا أماه لو كنت أستطيع أن أسهل عليك الأمور، لو كنت أستطيع أن أحميك! لو كنت أقدر أن أعود إلى رحمك مرة ثانية لأخرج منه ولدًا! آه، لكنت الآن أميرك المدلل وملك الكون.

تركتها لتبكي وأنا أعرف أن قلب المرأة المجروح لا تكفي السنون لشفائه، ولكن تكفى كلمه اعتذار ممن هم حقًا محبوها". عدت لسريري ولكن حتى ستائره الحريرية بألوانها الذهبية لم تجلب لي النوم، فقد

انتابني القلق والحزن لدموع أمي الملكة. شعرت حينها أن الكون لم يعد الكون الذي أعرفه، لقد أصبح أكثر ضجرًا واضطرابًا وقسوة. بكيت هذا الصباح بشدة وامتزجت في مشاعر جمة متخبطة ومتضاربة، مشاعر الحب لأمي والبغض لأبي، مشاعر الخوف من المستقبل والقلق من الحاضر. شعرت حينها أن براءة الأميرة الصغيرة قد فارقتني ولم أعد المدللة حتشبسوت فيما بعد.

لم أعرف كم من الساعات تجمدت مستلقية على سريري، حتى دخلت جاريتي المفضلة "ايزيس" غرفتي قائلة:

- صباح الخير أميرتي، بنت الشمس المشرقة دائمًا، أميرة الأميرات.

- صباح الخير "ايزيس"، هكذا أجبتها بوجه حزين عابس.

- أميرتي، ما لك حزينة اليوم؟! هل تحزن أميرة الأميرات وهي سبب سرور كل البشر؟ ومحبوبة أبيها الفرعون العظيم "تحوتموس الأول "! نعم لقد دعاك الفرعون توًا لترافقيه في رحلة صيده.

- آه "ايزيس" متى تتوقفين عن هذه الكلمات المنمقة، إنك مثل أبي تجيدين التملق وتزييف الحقائق بصياغة الأكاذيب. كلتانا تعرف أن الفرعون يريد وريثًا لعرشه، وأنا لن أحقق له هذا الأمر لكوني أميرة، فهو يبحث عن وريث ذكر، أعلم أنه يراني مثل دمية قديمة ليس لها دور في خطة حفظ عرشه المزعومة.

- لا تقولي هذا أميرتي، إنه يحبك ويهتم كثيرًا بشأنك أنت ومولاتي الملكة. أميرتي، دعك من هذا الهراء وارتدي ثوبك الملكي الأبيض الذي أعددته لكِ خصيصا لمقابلة الفرعون، وتزيني بحليك الذهبية الثمينة واستمتعي برفقة أبيك الفرعون المعظم تحوتمس.

وأكملت مقهقهة :"ولا مانع من أن تحطمي قلوب بعض الفرسان اليوم لوعةً واندهاشًا من عظم جمالك الفتان"

كانت ايزيس تحبني كثيرًا، وكانت حريصة كل الحرص أن أظهر بمظهر الأميرة الحسناء التي يسحر جمالها عيون الأمراء والفرسان، كانت تخبرني دائمًا أني جميلة وأني هدية الإله للقصر. والآن ما عليّ سوى الانصياع لرغبة الفرعون، والقبول بشرف مرافقة الفرعون في رحلة صيده.

وأمام ساحة القصر الفرعوني الكبير يقف مئات الجنود مدججين بالسلاح يحرسون مركبتي الحربية التي تجرها فرس أنثى قوية البنية ذات شعر أسود ناعم ينسدل على وجهها المفعم بالحيوية

وجسدها القوي. شعرت أني كمثل هذه الفرسة الملكية التي تجر مركبتي. نعم ،إنها أنثى ولكنها أقوى من جميع الذكور!

إنها المميزة ولهذا اختيرت لتنال امتياز خدمة قصر الفرعون. إنها أنا في جوانب كثيرة، أنا في تمردي، في اندفاعي في كبريائي، وأيضا في ضعفي و حناني الأنثوي.

- "الموكب جاهز للرحيل مولاتي" هكذا صاح فارس مركبتي الحربية، فأومأت له بالانطلاق.

انطلق موكبي بصوت عجلاته الحربية الصاخب يشق طريقه في اتجاه الصحراء، وقد بدا قصرنا الأبيض الكبير أو كما ندعوه في لغتنا الهيروغليفية المقدسة "بر ور" أي (البيت العظيم) بدا لي من بعيد صغيرًا جدًا، وللمرة الأولى في حياتي أتساءل: هل يستحق هذا القصر كل هذه المعاناة والتضحيات للاحتفاظ به!

وفي الصحراء في المكان المعين وصل الموكب، فرأيت الخيمة الملكية الضخمة وتحت ظلها يجلس أبي الفرعون على كرسي عرشه الذهبي، محاطًا بمئات الحراس، وعشرات الجواري، يحملون خلفه المظال ويحركون أمامه مراوح ريش النعام ليرسلوا النسيم إلى وجهه، فيما يعزف الآخرون له الموسيقى ليروحوا عن نفسه، نعم إنه الفرعون فوق أى أرض وتحت كل سماء.
سجدت على ركبتي أمامه وحييته بأزهار اللوتس النضرة، إنها رمز الحياة المتجددة والخلود.

الفرعون: "أهلا أميرتي المحبوبة "حتشبسوت"، حبيبة قلبي وخليلة روحي، التي تسكنها أرواح الآلهة الخيرة"

طالما كان أبي متكلمًا لبقًا يعرف كيف يراوغ بالكلمات، إنه الشاعر الماهر وكاتب القصائد العظيم، وكان هذا أكثر ما تحبه أمي فيه. فمن هي التي يمكنها أن تصمد أمام سيل جارف من كلمات العشق والمديح، خاصة عندما تعتقد أنها خارجة من قلب رجل صادق!

إنها طريقته المفضلة للإيقاع بأي أحد كان، ليجنده لتحقيق رغباته وأغراضه الأنانية في كثير من الأحيان. فلا مانع لدى الفرعون العظيم من أن يقول نفس القصيدة التي رواها لأمي إلى إحدى محظياته في نفس ذات الليلة. كان هذا يجعلني أراه وضيعًا جدًا وهو يعرف أني احتقره بسبب ذلك. ولهذا فهو دائمًا يتجنب أن ينظر لي في عينيّ مباشرة عندما يحادثني، فأنا أعرف كل ألاعيبه القذرة.

وفي المجلس كان يجلس كبار رجال الدولة والأطباء الشخصيين للفرعون، وقد استوقفني وجود شاب ذي بشرة سوداء يجلس عن يمينه، إنه يشبه والدي كثيرًا بخلاف لون بشرته القاتم.

-الفرعون :" أعرفك حتشبسوت على ابني وخليفة عرشي الأمير تحتمس الثاني "

- حتشبسوت: " ابنك الأمير" ماذا يعني ذلك؟

- الفرعون : نعم، إنه ابن أخي من جاريته الكوشية، وهو الآن كابن لي، لقد أخفيته كل هذه السنوات في الظلام لأحميه من بطش أمك الغادرة، فأنا لن اترك عرش أجدادي بلا وريث له، لا يمكنني أن أشعر بالخزي أمام أجدادي عندما أذهب إليهم في حضرة مجلس الآلهة.

قال هذا وهو ينظر في عيني للمرة الأولى منذ سنوات، حينها علمت أني أقف الآن أمام رجل ثائر عازم أن ينفذ ما قرره، ومن الأفضل أن لا يقف أحد أمام تحقيق رغباته، خاصة إن كان هذا الرجل هو الفرعون!

يا له من أحمق، هل يجلس ابن جارية على عرش مصر العظيمة! كم وددت أن أصفعه على وجهه، ولكن ما هذا! هل أصفع الفرعون! وما قد تكون عاقبة هذا! خشيت كثيرًا من نفسي عندئذ، واكتفيت بالانحناء له، راسمة ابتسامة مصطنعة ، وتواريت للجلوس بين حاشيته.

فقد أخفى أبي الفرعون ابن أخيه هذا لسنوات عن أنظار القصر، خاصة بعد موت عمي في حادث صيد مفاجيء، ليكون هذا الابن وليًا للعهد في حال لم ينجب أبي أبناء ذكورًا. كان هذا الشاب الأسمر يصغرني بسنوات قليلة، يجلس بجوار الفرعون ليعلن أن عصرًا جديدًا قد بدأ، فيه أصبح أبي الفرعون مستعدًا أن يواجه الكل من أجل أن يثبت وريثه على العرش. لم أكن أعرف من أين ظهر هذا الشاب فقد ظهر من الظلام الحالك فجأة، الحالك مثل بشرته شديدة السواد.

في اليوم التالي استيقظت على صوت مزعج مخيف، فنهضت مسرعة إلى باب خيمتي لأرى ما عسى أن يكون هذا! فإذ به صوت غزال بري صغير يتألم وقد نشب السهم في قلبه ليرديه أرضًا، وها هو أبي يهرول ليمسك به صارخًا في صخب شديد كالمجنون وهو يقهقه: " لقد قتلته، لقد أصاب سهمي قلبه بدقة بالغة، يا لي من قاتل ماهر!

عرفت حينها إنه يمكن للرجل الوقور والذي يهابه الجميع ويوقرونه أن يصبح شخصاً بربرياً في لحظة، عندما تسوقه غرائزه كالحيوان. وكان يقف بجواره ابنه الجديد، وريث العرش الرجل الذي خرج إلينا من

الظلام وهو يمسك قوسه حاملاً فريسة أخرى من الغزلان بحجم أكبر. لعلها تكون هي أم هذا الرضيع الذي قتله أبي.

الفرعون: "انظري حتشبسوت إلى ما اقتنصه ابني بالتبني الأمير "تحتمس الثاني"، انظري كم هو صياد ماهر، إنه أسرع من الفهود وأكثر بطشًا من الأسود!

عندها ابتسم هذا الشاب الأسمر، ولمعت عيناه شديدة السواد وهى جاحظة لي وكأنه يتحداني قائلا "وماذا عنك أيتها الأميرة الرقيقة، هل يمكنك أن ترضي قلب الفرعون المتعطش للدماء والراغب دائمًا في إثبات قوته؟ هل يمكنك أن تطمئني مخاوفه على مملكته، مبرهنة له أنها في يد خلفاء أقوياء!

واجهته بنفس نظرة السخرية والتحدي، وأعتقد أنه علم أني لست من هذا النوع من النساء اللاتي يقبلن التواري في الظلام كالجبناء. فأنا لن أقبل نظرات الضعف لكوني امرأة، لا فأنا أقوي من كل هؤلاء الرجال المجانين المتعطشين لإثبات قوتهم، وهم لا يعرفون أنهم في سعيهم هذا للتباهي بقوتهم يؤكدون حمقهم وضيق أفاقهم.

وعند الغروب وفيما أخذت أشعة الشمس تغيب بلونها الأحمر، بدأت النجوم الخافتة بالرقص، حيث جمع الأفق الممتد بينها وبين حبيبات الرمال الصفراء المائلة للحمرة، في مشهد ساكن ساحر. أخذت أتساءل عن جدوى ما يفعل هؤلاء الرجال لما يعرضون أرواحهم للخطر، ما الذي سيجنونه بالبحث عن الحيوانات لقتلها في صحراء قاحلة! كم أنتم مخبولون أيها الرجال!

فجأة صاح قائد الحرس" أين الفرعون؟، الفرعون ليس موجودًا في خيمته، ليجتمع الجميع حالاً و يجرد كل واحد سلاحه ،و لنبدأ بالبحث عن العظيم سيدنا"

عندها بدا أن الكون قد ارتج، وأن الأرض والسماء اهتزتا من صخب ضجيج الجنود المحتشدة والمتأهبة للقتال دفاعًا عن مليكها. سريعا بدأ البحث عن الفرعون، وكنت أنا أول الباحثين، إنه رغم حماقته مازال أبي. لا أعرف كيف أتتني الشجاعة في أن أقف وأقود المركبة الحربية بمفردي وأشق طريقي في عمق الصحراء، ممسكة بلجام خيول مركبتي متشبثة بقوة حتى لا أسقط أرضًا ،و باليد الأخرى أمسك بالسهام متوقعة هجوم الوحوش البرية الضارية عليا أثناء البحث عن الفرعون.

فجأة رأيت ما كنت أخشاه، رأيت الفرعون وقد سقط أرضًا من مركبته جريحًا يدمي ، بينما أخذ يجري نحوه أسد مسرع ليفترسه. فأمسكت بقوسي وصوبت السهم نحو الأسد الجائع وانطلق السهم فأصاب الأسد في قلبه وأوقعه أرضًا.

شعرت أن من صوب السهم ليست المدللة "حتشبسوت بل أنها روح الآلهة حتحور التي تحمي الفرعون. قفزت عن مركبتي وترجلت مسرعة نحو أبي لاحتضنه قائلة:

- أنا هنا يا أبي الفرعون العظيم "تحوتمس الأول" ، أرسلتني الآلهة لأقتل أعداء الفرعون.

إلا إنه لم يجيبنى بكلمه، وما هي إلا لحظات حتى عثر علينا الحراس، وحملوا الفرعون الجريح بحرص بالغ إلى خيمته الملكية ليطيبه الأطباء الملكيون. ووضعَ أبي على سريره الخشبي بقوائمه الذهبية على شكل الآلهة سخمت ربة الحرب.

كانت الخيمة البيضاء بألوانها المتناغمة الأزرق والأخضر والذهبي، مكتظة بالحضور من الأطباء والنبلاء والمنجمين والكهنة، الذين ساورهم القلق البالغ على حياة الفرعون. وبين هؤلاء وقف هذا الشاب ذو البشرة السوداء " رجل الظلام" كما أحب أن أدعوه دائمًا ابن الجاريه الكوشية. وقف هذا الشاب ينظر إلي يرمقني بنظرة مختلفة عما كان ينظر إليّ بها من قبل، وقد بدأ عليه الذهول والخوف بل الصدمة عما يمكن أن تفعله أميرة ملكية مدللة في تغيير مسار الأحداث فجأة! حينها علمت أنه بدأ يدرك مقدار قوة هذه المدللة، و عليه أن لا يستهين بها أبدًا.
نظرت إلى أبي ، وقد أنهكه الإعياء وأصبح عاجزًا على أن يلعب دوره المعتاد، دور المخادع، ذي الكلام المنمق، شاعر الكلمات القوية الرنانة. فلعل ما يقوله القدماء صحيح " إنه بالآلام تتقدس الروح وتصبح أكثر صدقًا"

- أبي، حماك الإله "آمون" من كل شر، أنت يا من تطلع على عالمنا المظلم بالنور والفرح، حفظتك الآلهة الحامية لأرض العظماء، يا محبوب "آمون" يا حورس الحي وابن "اوزوريس" العظيم.
- باركتك الآلهة يا حتشبسوت، أنت من أرسلتها الآلهة لإنقاذى، فيك تسكن أنفاس الآلهة و بك تصنع ما تريد، يا من يرضى عنك آمون ومن أحبه أنا.

رغم أنى أعلم أن أبي مخادع كبير، إلا أنني شعرت بصدق كلماته حينها، وأنه يعني ما يقوله الآن، كم أحبك أيها المخادع الكبير!